

تقرير

شوقي عشقوني
lionbars@hotmail.comالإستقلال بات مطروحاً في جدول أعمال أكثر من بلد
الإتحاد الأوروبي يواجه الإنفصال وخطر التفكك

من المفارقات ان مشروع كاتالونيا الاسبانية للانفصال تحرك في العام ذاته لمشروع كردستان العراقية، وجرى الاستفتاء في الاقليمين في الفترة ذاتها. لا شيء يجمع بين الاقليمين الاسباني والعراقي، لا في التاريخ ولا في الجغرافيا. يجمعهما مسار دولي ذاهب في اتجاه احياء النزعات القومية والاقلوية والانفصالية، في موازاة تفكك الانظمة الشمولية والتكتلات الكبرى وانهيائها

رغم الاختلاف والتباعد بين الاقليمين الاسباني والعراقي، يظل هذا السؤال مقبولاً: هل يصاب مشروع الانفصال الكاتالوني في اسبانيا بما اصاب مشروع الانفصال الكردي في العراق، وتلحق به انتكاسة مبكرة من جراء تضافر عوامل خارجية وداخلية، ان لجهة رفض دول الجوار لتعارض الانفصال الاحادي مع مصالح المجموع، او لجهة بروز انقسامات داخلية في كل اقليم بين مؤيدين ورافضين للانفصال والاستقلال، علماً ان المؤيدين متهورون والرافضين خونة؟

الاستفتاء في كردستان العراق نظر اليه البعض على انه استفتاء مشبوه في توقيتته واهدافه، وتدرجه في اطار مؤامرة على المنطقة لتقسيمها اتنيا وعرقياً وطائفياً انطلاقاً من العراق. لكن نظرية المؤامرة المتداولة دائماً في الشرق الاوسط، في العراق (شمالاً) او في السودان (جنوباً)، هل هي موجودة في اوروبا، في اسكتلندا وبلجيكا، وفي كندا وبريطانيا؟ هل كان تصويت بريطانيا على الخروج من الاتحاد الاوروبي مؤامرة اميركية او روسية على اوروبا؟ هل مطالبة اسكتلندا بالاستقلال عن بريطانيا مؤامرة اوروبية على بريطانيا؟ واخيراً، الاستفتاء الذي جرى في الامس في اقليم كاتالونيا الاسباني هل هو مؤامرة على اسبانيا وممن؟

مسألة الانفصال والاستقلال باتت مطروحة في جدول اعمال بلدان عدة، وهناك من يربط هذه الوجة بالعملة، ومن يربطها بصعود الهويات او انتهاء صلاحية

الدولة المركزية. لكن حتما لا يوجد من يربطها بالمؤامرة. مع تحول الخلاف المرتبط بالاستفتاء بين الحكومة المركزية والمسؤولين الكاتالونيين الى واحدة من اكبر الازمات التي تشهدها اسبانيا منذ عودة الديموقراطية اليها، بعد وفاة الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو عام 1975، فان عدداً كبيراً من مناصري الاستفتاء على الاستقلال ينتقدون موقف الاتحاد الاوروبي والغرب لعدم التوسط بين الاقليم وحكومة مدريد، لاسيما ان الازمة الحالية في اسبانيا قد تكون لها تداعيات على دول اوروبية اخرى تواجه نزعات انفصالية، وهي الاكثر اضراراً بمنطقة الاورو، وقد تكون اسوأ وقعا حتى من خروج بريطانيا من الاتحاد الاوروبي. واذا مضى القادة في اقليم كاتالونيا قدماً في مشروع انجاز الاستقلال عن المملكة الاسبانية، تصبح اسبانيا مهددة بالتفكك،

لانه قد لا يكون اقليم كاتالونيا وحده الذي سيطلب بالانفصال خلال المرحلة المقبلة. اذ يشجع هذا الموقف الكثير من الحركات القومية الانفصالية في اسبانيا على انتهاج الطريق نفسها، وخصوصاً اقليم الباسك واقليم الاندلس.

في اخر جولة من المحاولات الانفصالية الاوروبية، التي جاءت على خلفية ازمة كاتالونيا ونيتها في الانفصال، صوت اقليمان غنيان في شمال ايطاليا بـ"نعم"، في استفتاءين على الحكم الذاتي. الامر الذي قد يفتح شهية مناطق اخرى في عدد من دول الاتحاد التي تواجه ازمة خروج بريطانيا من التكتل. اجري اقليماً لومبارديا وفينيتو، وكلاهما تحت ادارة حزب "ليجا نورد" (الرابطة الشمالية) الشعبية اليمينية الذي كان يوماً يجاهر بالدعوة الى الانفصال، تصويتين غير ملزمين يأمل الحزب في ان يمنحاه تفويضاً يعزز موقفه في سبيل الحصول على صفقات مالية افضل.

بعد انتصار "نعم" في استفتاء الحكم الذاتي في الاقليمين الغاضبين، على غرار مناطق اخرى في اوروبا، بازاء سلطة مركزية تعتبرانها فاشلة، اتجهت انظارهما نحو روما، في محاولة للحصول على مزيد من الصلاحيات للتصرف باموالهما. ورغم ان العملية لا تهدد وحدة البلاد، يمكن ان تؤدي الى مفاجآت كارثية، وتدفع الى تحرك قوى تنبذ المركزية في ايطاليا، وتجعل من الصعب ردم الهوة بين شمال ايطاليا وجنوبها.

لم يظهر قادة الاتحاد الاوروبي اي تعاطف مع انفصاليي كاتالونيا، واعتمدوا موقفاً موحداً قاضياً بدعم مدريد ضد اي اجراء احادي الجانب وغير دستوري. ولخص رئيس المفوضية الاوروبية جون كلود يونكر موقف الاتحاد عندما قال: "الاتحاد



ازمة اسبانيا قد تكون لها تداعيات على دول اوروبية.

الاوروبي ليس في حاجة الى المزيد من الانشقاقات. الاتحاد لن يتدخل في شأن اسباني داخلي، لكننا لا نريد ان يصبح عدد اعضاء الاتحاد الاوروبي 95 في المستقبل"، في اشارة الى تنامي الحركات الانفصالية داخل اوروبا، وذلك في ظل وضع يشهد تنامي التيارات القومية واليمين المتطرف اسباني داخلي، نتيجة ازمت الهجرة ومستويات الدين الخارجي المرتفعة وتهديد الازمة. وبات اعضاء الاتحاد الـ28 في الاتحاد يولون اهمية اكبر

لحدودهم خلال الاعوام الماضية، وتحولت مراقبة الحدود من خطوة منبوذة داخل الاتحاد الاوروبي الى عملية روتينية، حتى ان دولاً مثل النمسا وسلوفينيا اقامت اسيجة حدودية لمنع لاجئين من دخول اراضيها.

يجوز القول ان لا مكان للحركات الانفصالية في اتحاد اوروبي يواجه اليوم انسحاب احد اهم اعضائه (بريطانيا)، سواء تعلقت بكاتالونيا في اسبانيا او اسكتلندا في بريطانيا، او فلاندر في بلجيكا او كورسيكا في فرنسا او حتى فينيتو ولومباردي في ايطاليا. اما الانفصاليون، فمتمسكون بين فكرة البقاء ضمن اتحاد اوروبي كبير جامع لكل الانتماءات، او الاستقلال ومحاولة ادارة شؤونهم في معزل عن الحكومات المركزية والمؤسسات الاوروبية.

وبينما تقيد الدساتير الاوروبية حق الانفصال في حالات معينة كتعرض حقوق سكان الاقليم لانتهاكات خطيرة، ما يمنعهم من ممارسة حق تقرير المصير، فان هذه الاوضاع لا تنطبق على الاقاليم المطالبة حالياً بالانفصال، حيث انها تطلب الاستقلال

اقليم كاتالونيا الاسباني

كاتالونيا اقليم اسباني يتمتع بالحكم الذاتي ويتميز بقومية تاريخية. يقع في شمال شرق اسبانيا وشبه الجزيرة اليبيرية، وتبلغ مساحته حوالي 32 الف كلم مربع. تحده من الشمال فرنسا وامارة اندورا، ومن الشرق مياه البحر الابيض المتوسط، ومن الجنوب اقليم فالنسيا، ومن الغرب اقليم اراغون. ادى هذا الموقع الاستراتيجي المتميز الى توطيد علاقات كاتالونيا بدول حوض البحر الابيض المتوسط ودول القارة الاوروبية، ويعد من اهم اقليمها من حيث النشاط الاقتصادي وتعداد السكان.

عاصمته مدينة برشلونة التي توصف بانها العاصمة الاقتصادية لاسبانيا، ويتكون من اربع مقاطعات: برشلونة وجيرونا ولبريدا وتاراغونا.

يبلغ عدد سكان اقليم كاتالونيا وفقاً لاحصاءات نشرت عام 2015 نحو 7 ملايين و500 الف نسمة، وله لغته الخاصة وتقاليد وعاداته الثقافية، حيث يتكلم الكاتالونيون اللغة المحلية الكاتالونية واللغة الاسبانية. يشكل قطاع الصناعة منذ اواخر القرن التاسع عشر عماد اقتصاد كاتالونيا، واحدى المناطق الاكثر استراتيجية لاسبانيا. فهو الاغنى وسط 16 اقليماً اسبانياً، ورابع اكبر اقتصاد في منطقة الاورو، ويحوز 22,5% من السياحة الاسبانية، ويملك قطاعاً مالياً قوياً. ويملك الاقليم سلطات واسعة جداً باعتباره مجتمعاً ذاتي الحكم تاريخياً، وله شرطته الخاصة "موسوس ديسكوادرا"، كما يطالب باستقلالية مالية اكبر.



ابرز التحديات امام الاتحاد الاوروبي ازمة اللاجئين.

هك سيكتب للكيانات
الصغيرة البقاء في ظل
اضطرابات اقتصادية
ومالية تعصف
باقوى اقتصادات العالم



لم يظهر قادة الاتحاد الاوروبي اي تعاطف مع انفصاليي كاتالونيا.

تسعى حركات الانفصال والتطرف الى اعادة رسم خريطة اوروبا عبر الارتكاز على معايير اتنية ولغوية او ثقافية، ووردها الى عدم تمتع هيئات الاتحاد الاوروبي بالشرعية الديمقراطية، والزوال التدريجي للحدود، وتوحيد سبل الحياة، وفرض اللغة الانكليزية لغة مشتركة. هذا الامر خلق صدمة ارتدادية لا تخدم المعركة السياسية من اجل اوروبا اكثر اجتماعية واقل تكنوقراطية، وانما في اتجاه تعزيز خصوصية الانتماء.

هذه الظاهرة تقترن بغيره قومية في مناطق مزدهرة تشكو من انها تؤمن الموارد لمناطق اكثر فقرا وتريد الاحتفاظ بضرائها في مناطقها. وهو ما نراه يتجسد الان في حراك اقليمي لومبارديا والبندقية في ايطاليا، او حراك كاتالونيا في اسبانيا، الامر الذي صار ينذر بقوة بامكان تحقيق بعض التهككات السياسية المقلقة التي ظهرت في نهايات القرن الماضي، والتي كانت تنحو لاعادة ترسيم الخرائط السياسية، سواء قياسا بموازين القوة الاقتصادية، او قياسا بمقومات العرق والثقافة واللغة.

ونفي المشكلات الوثيقة الصلة بها. ومن هذه المشكلات الشعور بانعدام الامان او قلق الذين يرون ان عالمهم يتغير امام اعينهم وهم يتحولون فيه الى غرباء على المستويات كلها، ومنها ربما عدم الامام باللغة السائدة (لغة المهاجرين). يرفع اليسار شأن التعددية الثقافية الى مصاف النموذج المبتغى، في وقت يشيطنها الشعبويون.

للمرة الاولى منذ سقوط جدار برلين والشيوعية، والتباين بين الغرب والشرق لن يتبدد او يندثر. اوروبا الشرقية تشكو من استبداد برلين في الزام الاتحاد الاوروبي سياسة الهجرة الخاصة بها وحمل دوله على الطاعة، وترفض خطاب اعلاء شأن حسنات مجتمع التعددية الثقافية. ويتعذر الجمع، في آن، بين تسليط الضوء على الجانب الايجابي من التعددية الثقافية

اسكوتلندا

عدد سكان هذا الاقليم يقارب 5,4 ملايين نسمة وعاصمته ادنبرغ، وهو واحد من العناصر المكونة للمملكة المتحدة. دستوريا، هو دولة تتمتع بحكم ذاتي، الا ان البرلمان البريطاني يحتفظ بالقدرة على ادخال الاصلاحات والتغيير اليه، او الغاء الحكم. لذا يمكن القول ان البرلمان هناك يتمتع بسيادة مطلقة. لذلك فهو يطالب بالاستقلال التام. يبلغ حجم الناتج القومي الاجمالي في اسكوتلندا 127 مليار جنيه استرليني سنويا، ويعمل في قطاع الصناعة خمس القوى العاملة التي تشكل 20% من الناتج الاجمالي. شهدت الصناعات النفطية، بما فيها صناعة البتروكيميايات، نموا سريعا في اسكوتلندا اثر اكتشاف النفط الذي يحقق عائدات ضريبية تصل الى 7 مليارات جنيه سنويا، وزاد دعم الاقتصاد اثر اكتشاف الغاز الطبيعي في قاع بحر الشمال في الستينات. تمثل ابردين مركز الاعمال الخاص بانتاج النفط، في حين تمثل ادنبره مركز الطباعة والنشر، كما انها تشتهر بصناعة الويسكي، ويصل حجم صادراتها منه الى 4,2 مليارات جنيه.

اقليم الباسك

يريد اقليم الباسك ايضا الاستقلال عن اسبانيا وفرنسا. فهو اقليم ضخم يمتد عبر جبال الپيرنيه الغربية على الحدود ما بين البلدين. عدد سكانه 2.2 مليون نسمة وعاصمته فيتوريا غاستيز، وتصل مساحته الى حوالي 20 الف كلم مربع. يعد اقليم الباسك مركز الصناعة الثقيلة، واصبح اليوم مركزا للتكنولوجيا والمال. وهو لا يختلف عن الاسبان ثقافيا فحسب بل اقتصاديا ايضا، بعدما تولت حكومة الاقليم امر تنميته على مدى اكثر من عقد من الزمن. عام 2016 وصل دخل الفرد سنويا في اقليم الباسك الى نحو 32 الف اورو، وهو اكثر بثلاث من المتوسط الاسباني و40% فوق متوسط جميع دول الاتحاد الاوروبي.

هي وراء دعر اخلاقي في اوساط اوروبيين يخشون الارهاب، وتقلقهم التغييرات الكبيرة والعنيفة، وهم يشعرون بأن الامور انفلتت من كل عقال. وفي عصر الهجرة، بدأت عجلة الديمقراطية تدور دوران آلة اقصاء وليس آلة دمج. فازمة المهاجرين تطعن في افكار الديمقراطية والتسامح والتطور والمبادئ الليبرالية التي تسم المشهد الايديولوجي الغربي، كونها باتت تشكل منعطفا في الدينامية السياسية للمشروع الاوروبي.

الانقسام بين اوروبا الشرقية واوربا الغربية عاد الى البروز مع هذه الازمة

وتنسب ازمة الاتحاد الاوروبي الى شوائب اساسية في بنيته الدستورية، او الى ابتلائه بشح في الديمقراطية. لا مناص من الاقرار بأن ازمة المهاجرين ساهمت في تغيير طبيعة السياسة الديمقراطية على المستوى الوطني، وان الناخبين يتمردون في اوروبا على النخب واصحاب الكفريات والجدارة. وتخفي ثورة المهاجرين ثورة مضادة محتملة، فهي ساهمت في بروز غالبية تشعر بانها مهددة وصارت قوة سياسية بارزة في اوروبا. هذه الغالبية المهتدة تخشى ان يجتاح الاجانب بلادها ويهددون طريقة عيشهم. فازمة المهاجرين

لاسباب تتعلق بشكل رئيسي بالرغبة في الاستفادة من مواردها الاقتصادية. السؤال المهم الذي يطرح بالحاح، ولا يريد المطالبون بالاستقلال سماعه: هل سيكتب لهذه الكيانات الصغيرة البقاء والاستمرار في ظل اضطرابات اقتصادية ومالية خطيرة تعصف باقوى اقتصادات العالم، وهل تصبح هذه الكيانات جاذبة للاستثمارات الاجنبية؟

قبل خمس سنوات، لم يكن السؤال عن خطر تفكك الاتحاد الاوروبي واردا، ويبدو ان الاتحاد كان راسخا. اثر "البريكزيت" واستفتاء كاتالونيا في الاتحاد لا يزال مجهولا. لكن لم يعد في الامكان الكلام عن اوروبا على المنوال السابق قبل التصويت على الانسحاب من الاتحاد الاوروبي والاستفتاء الكاتالوني.

تمثل ابرز التحديات امام الاتحاد الاوروبي ازمة اللاجئين، اذ ان اثر المهاجرين في اوروبا يضاها اثر هجمات 11 ايلول في اميركا. ولا يمكن اعتبار عدد هؤلاء هو الذي يززع استقرار القارة الاوروبية، بل يكمن الخوف في ان يحملوا معهم بذور تغيير ثوري في القرن الحادي والعشرين.